20050411-0008a-R

العار

١١-٤-٢٠٠٥

بين جيلي حرب السنتين والاستقلال الثاني

محمد اجي سمرا

- 1 -

بعد أشهر قليلة من نهاية حرب السنتين (1975 - 1976)، وفي كافيتريا معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية حيث بدأت طالباً في السنة الأولى، مزّقت بطاقة انتسابي نصيراً لحركة "فتح" الفلسطينية المسلحة. كأني بتمزيقي تلك البطاقة التي افتخرت خَجِلاً ومتردداً في حملها طوال سنة، كنت احتفل بانحسار الحياة العسكرية الذكورية القاحلة ومجتمع الحرب الرمادي الموحش.

لم تكن هذه حالي وحدي. كثيرون من جيل يساريي حرب السنتين والمنخرطين في صفوف المنظمات الفلسطينية المسلحة كانوا قد قُتلوا. وأكثر منهم أولئك الذين ألقوا سلاحهم وولاءاتهم وأوهامهم قانطين يائسين. أما البقية الباقية التي اظن انها قليلة، فتابعت مسيرتها جاعلة من الحرب وسياسة الحرب مهنة حياتها وعيشها.

20050411-00086-2

أنا وكثيرون من ذلك الجيل الطالبي اليساري والثوري، لم نكن نفتخر بالسلاح حين نحمله علانية في الشوارع. بل كنا نكتم خجلنا به وبأنفسنا حين تقع علينا ابصار المارة والعابرين من الأهالي المدنيين. والحق أننا كنا نداري ذلك الخجل المكتوم ونخنقه، بأن نستسلم لضجيج صوفي هائل يدوي في رؤوسنا ويلهب جوارحنا. ضجيج هو خليط من كلمات ومشاعر وصور وأوهام مصدرها الناصرية والعروبة القومية المحبطة والمتحدرة الينا من بيئاتنا الأهلية الاسلامية.

- 2 -

بين 1967 و1975 كانت هذه المشاعر، بعد تغليفها أو خلطها بيسارية ثورية مهووسة بخرافة حرب الشعب لتحرير الأرض السليبة، الإكسير الناجح لتجنيد حلقات من الشبان والطلاب اللبنانيين غير المكتملي اللبننة الاجتماعية والسياسية بعد، تجنيدهم في خلايا عسكرية أو شبه عسكرية تابعة للمنظمات الفلسطينية المسلحة. وقد أخذت هذه الخلايا على عاتقها أو استُعملت لنقل شعارات السلاح الفلسطيني وأهازيجه وخرافته السياسية الى

20050411-00087-2

قلب الحياة الطالبية في الثانويات والجامعات، والى الاحياء السكنية في بيروت وضواحيها وغيرها من المدن والقرى اللبنانية.

وعلى وقع تلك الخرافة والشعارات والأهازيج المسلحة كان لبنان يتقدم حثيثاً نحو جحيم الحروب الأهلية العروبية الملبننة، التي شاركنا فيها نحن جيل حرب السنتين، منوّمين أو شبه منوّمين.

- 3 -

الآن، بعد الذي حدث، وفي الذكرى الثلاثين لبدء الحرب، استطيع، ويستطيع غيري من أمثالي، أن يقول: لم اكن أدرك أو اتخيل ان ما كنا نفعله آنذاك، كان على هذا القدر من الجدية والمسؤولية، وسيؤدي الى ما أدى اليه. وفي مستطاع الناظر اليوم الى أفعاله المنقضية ان يقول أيضاً: لم يكن قصدي أن تؤدي أفعالي تلك الى ما أدت اليه. وفي الحقيقة يمكن الاستمرار في تلاوة أفعال الندامة على ما قمنا به، وصولاً الى القول: لقد كان ما فعلناه صنيع خفة الشباب وطيشه وغنائيته وتهاويمه...

لكن أي غنائية بريئة هي تلك التي راحت تساهم في انشاء الخلايا الأولى لمجتمع حربي لبناني أخذته هستيريا القتل والتدمير والخطف والحرق والنهب... طوال 15 سنة؟

وما الذي جعل غنائية شبابنا، نحن جيل حرب السنتين وما قبلها، أداة أو مطية لمجتمع الحرب، بينما أتت غنائية شبان وشابات الحركة الاستقلالية اللبنانية التي حفزها الاغتيال الوحشي لرفيق الحريري، وأخرجها الى الشوارع، لتكون تتويجاً لمسيرة الخروج من مجتمع الحرب اياه الذي ساهمنا في صناعة خلاياه الأولى بين 1967 و1975؟

- 4 -

هل نحن حيال غنائيتين للشباب، متعارضتين ومتعاكستين، إذاً؟! نعم، على الأرجح.

يكمن التعارض والتعاكس هذان في أننا، نحن جيل حرب السنتين وما قبلها، عشنا صبانا وشبابنا تحت سطوة إرث العروبة القومية، وخرافتي اليسارية الشيوعية وثورية السلاح الفلسطيني. وهذا ما أعاق مجتمِعاً استكمال تلبننا

اجتماعياً وثقافياً وسياسياً، ومنعنا من ان نبرأ من الخرافة والإرث هذين اللذين يرسيان الاجتماعَ والسياسةَ على القوة والنسب والإرث والحلف والعصبية والولاء والاستيلاء والاستتباع والحرب والعداوة والعمالة والقتل والاغتيال.

وفيما أدى مجتمع الحرب اللبناني الوليد والمهيمن طوال 15 سنة، الى تسليط مافيا حزب البعث العربي السوري وأتباعه اللبنانيين على حياتنا السياسية عبر اتفاق الطائف، كانت سنوات سلم الطائف تغذي من جديد اللبننة الاجتماعية لأجيال جديدة أخرجها اغتيال رفيق الحريري الى الشارع، لتبدا مسيرة لبننة الحياة السياسية ونزع تسلط مافيا البعث السوري وأتباعه اللبنانين.

لكن، اذا كان عهد الخرافة اليسارية الشيوعية وخرافة السلاح الثوري الفلسطيني قد ولّيا، فإن العروبة الثقافية والسياسية لم تغزُ لبنان من خارج، بل هي مقيمة في وجه من وجوه الاجتماع والسياسة اللبنانيين الداخليين.

20050411-0008 f-mc

قد يكون في رأس ما يحتاج اليه لبنان اليوم، للخلاص مما فيه من عروبة ثقافية وسياسية، أن تتسارع وتائر اللبننة الاجتماعية والثقافية للجماعات والفئات اللبنانية المسلمة والمسيحية، خصوصاً تلك التي استتبعها البعث السوري وولى عليها من صنائعه نواباً وأمناء عامين وأحزاباً ورؤساء ورجال مافيا، ليصنع منها جماعات من الأتباع والرعايا والعصبيات المرصوصة المقيمة في ما يشبه غيتو، والخائفة من الحرية التي يمنحها اياها مجتمع المواطنين المستقلين والأحرار.

- 6 -

وأنا الذي سرت وسط جموع المواطنين اللبنانيين واللبنانيات الأحرار في ذلك النهار، حدست لماذا لم يغمرني من قبل ذلك الشعور القوي والواثق والأكيد، بأن خط تماس مجتمع الحرب قد زال حقاً وفعلاً بعد 15 سنة من زواله من قلب المدينة. غمرني ذلك الشعور وتهيأ لي ان الزمن اللبناني قد دار دورة كاملة بين 1975 و2005. وفيما كنت أنظر في وجوه الشبان والشابات المبتهجات من حولي، فكرت كم كانت كيئبة مشاركتي الخجولة وغير

20050411-00089-12

الواثقة، في رسم ملامح مجتمع الحرب اللبناني، حينما كنت مستسلماً لغنائية شبابنا العروبي والثوري الكئيب.

ومن الأمثلة على كآبة غنائية الشباب تلك، روى لي أحد مقاتلي حرب السنتين على جبهة الشياح ضد مقاتلي عين الرمانة الحادثة الآتية، قال:

فجأة دخلت فتاة الى مقر المنظمة العسكرية التي كنت مقاتلاً في صفوفها. كانت الفتاة هاربة من بيتها المحاصر في عين الرمانة. حين التقت أبصارنا وتذكرت أنها من زميلات مقاعد الدراسة في تلك المنطقة المسيحية في سنوات ما قبل الحرب، شعرت بأني غريب تماماً عن نفسي، وأخذتني موجة باردة من الخجل والمهانة مما أنا فيه.

كأني حين نظرت الى نفسي في عيني تلك الزميلة القديمة وعيني الشخص المدني الذي كنته قبل سنتين، احسست أن هالة البطولة التي اغدقناها على أنفسنا نحن المقاتلين المناضلين وأغدقها علينا أهالي منطقتنا، ليست شيئاً آخر سوى العار، والعار فقط.